المحاضرة الثانية المراحل التاريخية لتطور مفهوم السيميولوجيا

وراء كل علم خلفيات تاريخية و نظرية و جذور ابستمولوجية يعود اليها ,و هو الامر نفسه بالنسبة للسيميولوجيا ,غير انه من الصعب تحديد تاريخ هذا العلم بدقة , حيث يرى بعض الباحثين ان الأصول الأولى للسيميلوجيا ظهرت من خلال العلوم الطبية فعندما كان يريد الطبيب ان يعالج مريضا ,يبدا بالتشخيص ,و ذلك من خلال ملاحظة الاعراض les symptomes التي تظهر من خلال علامات تظهر على جسم المريض يقوم الطبيب بقراءة هذه العلامات ,و يقوم بتحويل هذه العلامات الى إشارات دالة حول مرض معين كلما تكررت نفس الإشارات عرف المرض .

لكن في المراجع الأساسية للفكر الغربي ترجع نشاة السيميولوجيا الى بداية الميلاد حوالي الفي سنة أي الى الفكر اليوناني , و في هذا الاطار استعرض الفيلسوف الإيطالي "امبيرتو ايكو " الفترات الزمنية لهذا العلم و يمكن تلخيصها على النحو التالي :

1- المرحلة الأولى :مرحلة الرواقيين

ان الراواقيين * الذين يرجع اصلهم من العمال الأجانب في أثينا هم اول من قال بان للعلامة signe و جهين دال و مدلول "signifiant-signifie"و يشير (ايكو) الى وجود علاقة بين كل أنواع العلامات ,و كل أنواع السيميائيات ,بحيث لايكون الامر قاصرا على العلامة اللغوية فقط ,و انما أيضا العلامة المنتشرة في شتى مناحي الحياة الاجتماعية مثل : اللباس و نظام الأزياء , او الموضة السائدة في مجتمع ما ,و التي تشكل علامات و أنظمة تختلف من مجتمع الى اخركما هو الحال في اداب التحية في اليابان علامات الزواج نظام المطبخ ,إشارات المرور ,كل هذا يعد علامات و إشارات و دلالات .

و يوضح امبيرتو ايكو بان الرواقيين الذين يعود اصلهم الحقيقي الى الكنعانين القادمين من ارض كنعان ,فلسطين سوريا لبنان ,الأردن و الى شمال افريقيا ليبيا ,تونس و الجزائر و المغرب , و الذين انتقل بعضهم الى أثينا و اكتشفو ا ان أصوات اللغة و حروفها , أي شكلها الخارجي و الذي يدعى الدال و راءه مدلولات متماثلة مع اللغة اليونانية .

---

*الرواقية هي مذهب فلسفي ,و يعد واحد من الفلسفات المستجدة في الحضارة الهلنستية ,انشاءه الفيلسوف زينون السيشومي ,تركز الفلسفة الرواقية على التناغم كاطارلفهم طبيعية الأشياء و كاسلوب للتخلص من القلق الذي تسببه الاحاسيس و قد اطلق عليهم لقب الرواقيين لانهم عقدوا اجتمعاتهم في الاروقة في مدينة أثينا .

و بالتالي فان هؤلاء المهاجرين ان صح التعبير هم اول من اكتشف الفرق بين الدال و المدلول و بانهم أصحاب تجربة لا يمتلكها اليونانيون , الا و هي تجربة الازدواج الثقافي و الحضاري و اللغوي من خلال ثلاث لغات هي :الكنعانية ,و الامازيغية و اليونانية .

كما يشير ايكو في حديثه عن السيميائيات القديمة الى جهود كل من ارسطو و افلاطون حيث استخدم هذا الأخير لفظ "السيميوتيك " للدلالة على الاقناع ,كما اهتم ارسطو هو الاخر بنظرية المعنى و ظل علمه مرتبط اشد الارتباط بالمنطق الصوري ,اذ سعى في كتابه (العبارة) ليحدد العلاقة بين الالفاظ و بين العلامات ,و بين أشياء العالم الخارجي اذ يقول :"ان الأصوات يخرجها الانسان رموز لحالات نفسية ,و الالفاظ المكتوبة هي رموز للألفاظ التي ينتجها الصوت و كما ان الكتابة ليست واحدة عند البشر اجمعين ,فكذلك الالفاظ ليست واحدة هي الأخرى لكن حالات النفس التي تعبر عنها هذه العلامات المباشرة متطابقة عند الجميع[1] .

2- **المرحلة الثانية :**تمثل مرحلة القديس الجزائري اوغسطين الذي يعتبر اول من طرح السؤال ماذا يعني ان نفسر و نؤول ؟و من خلال هذا السؤال شكل نظرية "التاويل النصي "تأويل النصوص المقدسة ,و تكمن أهمية هذه المرحلة في كونها تؤكد على اطار الاتصال و التواصل و التوصيل عند معالجة موضوع العلامة .

3- **المرحلة الثالثة :** هي مرحلة العصور الوسطى و التي تميزت بفترة التأمل بالعلامات و اللغة و من اشهر مفكري هذه الفترة "روجيه بيكون "و "ابيلار".

4- **المرحلة الرابعة :**تميزت بتعدد أنشطة المفكرين الالمان و الانجليز في إرساء معالم نظرية العلامات و الإشارات ,و من ابرز مفكري هذه المرحلة جون لوك الذي الف كتاب بعنوان مقال حول الفهم البشري و ذلك في سنة 1690 و قد استعمل لوك في مقاله هذا المصطلح سيميوطيقا simiotica ليقصد به العلم الذي يهتم بدراسة الطرق و الوسائط التي يحصل من خلالها على معرفة نظام الفلسفة و الاخلاق و توصيل معرفتها ,و يكمن هذا العلم في الاهتمام بطبيعة الدلائل التي يستعملها العقل ,لغرض فهم الأشياء او نقل معرفته الى الاخرين , و في سنة 1987 اعلن اللساني الفرنسي بريال Brealميلاد علم يختص بمعنى اللغة و هو علم الدلالة الذي اتى ليسد تلك الثغرة في الدراسات اللغوية التي كانت تهتم بشكل الدلالة على علم المعاني و الذي يعني به الكلمات و مادتها ,و اطلق بريال اسم تلك القوانين التي تشرف على تغير المعاني ,و يعالج الجانب التطوري للألفاظ

---

[1]قدور عبد الله ثاني ,سيميائية الصورة ,مغامرة سيميائية في اشهر الارساليات البصرية في العالم ,دار الغرب للنشر و التوزيع ,الجزائر ,2005,ص46

اللغوية و دلالتها ,و اعتبر بحثه وقتئذ ثورة في دراسة علم اللغة ,و اول دراسة حديثة لتطور معاني الكلمات و يعتبر بريال اول من استعمل مصطلح علم الدلالة .

5- **المرحلة الخامسة :و هي التي يتفق فيها جل الباحثين** على انها المرحلة الحاسمة في التحديد العملي للسيميولوجيا و هي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنموذج اللساني البنيوي الذي ارسى دعائمه و اسسه العالم الفرنسي فرديناند دي سوسير في كتابه محاضرات في اللسانيات العامة .

كما ارتبط هذا العلم من جهة أخرى بالمنطق على يد عالم الرياضيات و المنطق شارل سندرس بيرس في أمريكا الذي اطلق عليه مصطلح السيميوطيقا ,اذ اعتبر النشاط الإنساني نشاط سيميولوجي في مختلف مظاهره و تجلياته و يقول في هذا الصدد"انه لم يكن باستطاعتي يوما ما دراسة أي شيء في الرياضيات كانت أخلاقيا او ميتافيزقيا او جاذبية او ديناميكية او بصريات او كيمياء او فلكيا او علم النفس او علم الأصوات او الاقتصاد او التاريخ دون ان تكون هذه الدراسة سيميولوجية"

الى جانب الاسهامات الغربية في بروز الاهتمام بالعلامات تبلور هذا العلم ,نجد ان العرب قد عرفوا ما يسمى بعلم السيميائيات اليوم , اذ يمكننا القول ان التفكير السيميائي عند العرب نشا في أحضان علوم مختلفة ,كعلم النحو ,و علم البلاغة و علم التفسير ,و علم التصوف و عليه لم يكن التراث العربي بعيدا عن مثل هذه المشاغل فقد أولى المفسرون عناية كبرى بكافة الانساق الدلالية تصنيفا و كشفا عن قوانينها و قوانين الفكر ,بما ان التراث العربي لا يتوفر على تسمية تفي بهذا الغرض فقد تم اقتراح لفظة سيمياء للتعبير عن هذا العلم.